هندسة المسافات الاجتماعية في الجيوب القروية داخل المدن

د. ميمونة مناصرية - جامعة بسكرة- الجزائر

مجلة التغير الاجتماعي — العدد الرابع

الملخص :

المكان هو الفراغ المشغول من قبل الأفراد والجماعات، وعلى قدر تنوع الأمكنة المشغولة يتشكل سلم المعايير والقيم الاجتماعية - لكل مكان- وتتنوع مفرداته، وتتفاوت فيه نسب القداسة والتبجيل لمختلف المعاني والرموز.

وتشكل الجيوب القروية داخل المدن مجالا متميزا يختلف عن المدينة وعن الريف وعن القرية أيضا، حيث يشكله معمار مديني وتسوده سلوكات قروية مما يرسم للتناقض لوحات متعددة، تبدو واضحة من خلال الظواهر الاجتماعية والأفعال اليومية والسلوكات الفردية وكذا مختلف العلاقات الاجتماعية .

وكثيرا ما تظهر المسافة بين الأفراد أمرا مسلما به في ظل معايير اجتماعية متفق عليها، لكن الاعتراف بوجود فكرة المسافة بين الأفراد، كأمر قابل للدراسة يحتاج إلى كثير من الإدراك الحسي والحدسي على السواء.... إذ يشكل الإيماء والإيحاء والتحية والمصافحة وكل أشكال التقاء الوجوه ....شكلا من أشكال التواصل بين الأفراد، فيما يتم رسم المسافة خلال هذا التواصل على المستوى الإدراكي والحدسي بشيء من التفاوت حسب الموقف الاجتماعي المتأثر أساسا بمختلف القيم الدينية والعادات والتقاليد وأعراف الناس.

وتتعرض هذه المقالة إلى أشكال المسافة بين الأفراد في الجيوب القروية داخل المدن.

Abstract :

Place is the vacuum occupied by individuals and groups, and the diversity of places occupied forms the ladder of standards and social values - each place - and varied vocabulary, and vary proportions of holiness and reverence for the various meanings and symbols. The village enclaves within the cities constitute a distinct area that differs from the city, from the countryside and from the village as well. It is a urban architecture and has rural behavior. This contrasts with many paintings, which are evident through social phenomena, daily actions, individual behaviors and various social relations. The distance between individuals is often recognized as an accepted social standard, but recognizing the idea of distance between individuals as a matter of study requires a lot of sensory and intuitive perception. It is the gesture, inspiration, greeting, the forms of convergence of faces ... a form of communication between individuals, while the distance is drawn during this communication at the level of perception and intuition with some disparity depending on the social situation affected mainly different religious values and customs and traditions of people. This article deals with the forms of distance between individuals in rural enclaves within cities..

تمهيد

لا شك أن الحديث عن المسافة بين الأفراد هو حديث يتطلب إدراكا بالغ الدقة، لا لأن إدراك المسافة أمر عصي على الفهم، وإنما لكونه متشعب الأبعاد ذات الطبيعة المتمايزة، فالمسافة وإن بدت بعدا هندسيا فهي تنطوي على حزمة من الإدراكات لما تخبئه النفس من مشاعر وأحاسيس، وتطلع وشغف، وكره ونفور، ومودة ودهشة،...وهي في الآن ذاته تعبر عن معادلة رياضية متغيراتها اللباس وتقاسيم الوجه وأساليب التحية وشكل الضحك واتجاه النظرة و... ولعل هندسة المسافات ذات صلة وثيقة بفكر الفضاء، فنحن كبشر نستطيع تخيل الفضاء خاليا، لكننا أبدا لا نستطيع تصور شيء بدون فضاء، والنقطة الفضائية هي مكان خاوٍ يعوَض بمضمون، أي أنه من غير الضروري أن تكون بقعة في مجال النظر حمراء، ولكن يجب أن يكون لها لون، كما يجب أن يكون للصوت ارتفاع وللشيء الملموس صلابة[1] وللمسافة بين البشر قياس جبري وهكذا....، كما أننا في الفضاء نستطيع أن نتصور جيدا حالة أشياء تتعارض مع قوانين الفيزياء، إلا أننا لا نستطيع تخيل حالة من الأشياء تتعارض مع الهندسة[2]، ورغم صعوبة إدراك هذا المجال من الدراسة، إلا أن الانثروبولوجيا كتخصص يحتفي بشكل لافت بمثل هذه المواضيع، لا لأنها من صنع الانسان فحسب، بل لأن المجتمعات البشرية تتمايز بشأنها أيما تمايز، وتفصح عن تنوع لا متناه من أشكال التواصل عبر تقاسيم الوجوه وحركات الأجسام ورموز اللغة وألوان الملابس و....، وتستند هذه الورقة البحثية إلى دراسة سابقة بعنوان: **"التحول الديمغرافي وآثاره على التشوه العمراني -دراسة تطبيقية بحي العالية الشمالية-"**[3]، حيث تم رصد ملامح الحياة اليومية في حارات حي العالية الشمالية بمدينة بسكرة، والتي تشكل جيوبا قروية، عبر تقنية الملاحظة بالمعايشة، وهو ما سهل الوقوف على العديد من الحقائق التي يتميز بها المجال العمراني.

أولا . الجيوب القروية

الجيوب القروية هي التجمعات العمرانية الثانوية التي نشأت بشكل عشوائي على أطراف المدن وضواحيها في غياب القانون بشكل شريطي أو خطي أو اندماج حضري، وهي تشكل مناطق عبور قيمي، ففيها يتراوح السلوك بين المدينة والريف، وهي محل تشوه تنظيمي على المستوى العمراني والخدماتيوحتى القيمي المعياري في كثير من الأحيان من خلال اهتزاز قواعد الضبط الاجتماعي، وفيما يتحسن منظر الوحدات السكنية نتيجة عناية أصحابهابمرور الزمن، إلا أن حال الطرق والشوارع يظل بعيد المنال، فيما تبقى ثقافة الجيب القروي عصية على التغير إلا إذا تغيرت الأجيال.

وتشكل بعض الحارات –الحارة القديمة، حارة طابق الكلب- في حي العالية الشمالية جيوبا قروية تشكلت نتيجة موجة من الحركة والنزوح والوفود من خارج الولاية ومن بلدياتها، ومن أحياء المدينة، لفئات في معظمها محدودة الدخل. وفي غياب خطة عمرانية تأخذ بيد المشروع العمراني، شهد الحي تحولا ديمغرافيا وتكتلا ضمن مجال ضيق نظرا لما امتاز به من إيجابيات فنشأ بذلك التشوه العمراني بسبب التزايد المستمر لعدد أفراد الأسرة والتعديل المستمر في مخطط المسكن تبعا لهؤلاء الأفراد، وفي غياب خطة ينتجها المجال في تطوره يحتشد السكان في جهة دون أخرى فيأتي التجمع العمراني في شكل فوضوي ويجمع خلال ذلك الحي بين نمطين من أنماط الحياة الاجتماعية الأولى الناتجة عن البنية الاجتماعية والمتمثلة خصوصا في البناء القرابي، حيث يتشكل المجتمع من جماعات قرابية ذات اصل اثني واحد، مثل أولاد دراج والسوامع... وينتمون إلى قبائل بني هلال، النامشة وأولاد تيفورة والغواسير وأولاد عبد الرحمان واولاد عبدي وينتمون إلى الشاوية، وهي بمثابة تكتلات انقسم خلالها الجوار إلى وحدات جوار ثانوية أنتجت الحارة فيما بعد .

أما الخاصية الحضرية فتتجلى في الناحية الديمغرافية والكثافة السكانية العالية وكذا تجاور البنايات، وموقع الحي ضمن تجمع حضري يستفيد من كل الخدمات الحضرية كالجامعة والمركز البيداغوجي للمعاقين، وهكذا فقد بدأ التجمع العمراني بالخصائص الريفية، وهو ينتهي بخصائص حضرية مريفة، وبهذه الصفة فهو بمثابة "المحول" الذي يتم من خلاله العبور

بين وضعيتين اجتماعيتين تختلفان عن بعضهما، فهو يضمن للعائلات النازحة الاندماج التدريجي مع ظروف جديدة تتناسب مع الوضع الجديد في شتى المجالات مثل الاستقلالية الاقتصادية والحرية وتوفير فرص الحراك الاجتماعي والانخراط في مؤسسات حضرية عديدة والاستفادة من خدماتها مباشرة.

ومع ذلك فانه تحت تأثير صعوبات الحياة، وعجز المؤسسات الحضرية عن استيعاب السكان وإشباع حاجاتهم يستمرون في تمسكهم بالعلاقات الأولية، حيث أن أزمة السكن التي يصطدمون بها تفرض عليهم نمطا ووسطا ومعدلا من الأسر، والذي يتميز بالنووية في الميزانية والممتدة في الإقامة، أي أن الانتقال من الأسرة الممتدة المعروفة في المجتمع الريفي إلى الأسرة النواة المعروف بها الوسط الحضري، ومن التساند الآلي إلى التساند العضوي يتوقف على مدى فعالية المؤسسات الاجتماعية الحضرية في استيعاب السكان الحضريين وإشباع حاجاتهم المتعددة وخاصة في ميدان السكن وبصورة أدق عندما تعوض وبشكل فعال وظائف الآسرة الممتدة كوجود الحضانة مثلا .

بهذه الصورة يستقر الفراغ الاجتماعي بمرور الزمن، وينزع فقط للتراص واستغلال أدنى مساحة لإعطاء أمل جديد في زيادة فرد جديد، في وقت تغيب فيه كل ضوابط التعمير واستغلال المجال، فتهتز بذلك قواعد الضبط الاجتماعي عن طريق سيادة ثقافة الريف وبشكل صارخ في الوسط الحضري.

كما أنه من الصعب أن نتصور جماعية بمعزل عن الفراغ ، فكل جماعة تحتل فراغا، ونسمي هذا الفراغ بالفراغ الاجتماعي ، ففي الجماعة العمرانية تكون الرابطة الفراغية وثيقة وأساسية، وبالأساس تنشأ الجماعية العمرانية انطلاقا من الروابط الجماعية التي يخلقها قرب المسكن، رغم أن حي العالية الشمالية ينقسم إداريا إلى أحياء فرعية "حي النور، حي السعادة، حي الفجر"، إلا أن المواطنين عادة يفضلون استخدام أسماء الحارات بدلا عن الأحياء، وقد أطلقت على هذه الحارات تسميات من وحي الحياة اليومية للناس، وهذه الحارات هي :

- **"الحارة القديمة** " نواة الحي وأول تجمع عمراني ظهر على الرقعة الجغرافية .

- "**حارة الحشاشنة** "أو حارة الوصفان

- **حارة "طابق الكلب** " والتي عرفت لدى شباب الحي بـ"طاباقو" ثم تطورت التسمية إلى "طابقستان. "

-**حارة "لاسيتي** " والتي تم فيها توطين ساكني البيوت القديرية وسط المدينة عام 1982.

- "**حارة العشايش**" وهي الحارة التي كانت عبارة عن خيموا ًكواخ وبيوت من الصفيح ، وبعد تخطيط المجال تم إزالة جزء معتبر منالا ًكواخ.

- "**حارة الشاوية**" والتي يقطنها عادة الشاوية النازحون من المناطق الحدودية بين ولايتي باتنة وبسكرة.

وقد حدث تقسيم داخلي ضمن هذا التجمع ، إلى عناصر مختلفة به، وهذا التقسيم ليس مظهرا من مظاهر الانحلال بل مظهر من مظاهر التنظيم الداخلي للجماعية ، وهو عماد البنيان والتماسك الداخلي لهذه الجماعية ، فهناك تمييز ضمن هذا الفراغ بين حارات متمايزة وأنماط بناء متمايزة أيضا.

ثانيا. المسافات الاجتماعية

المسافة واحدة من القواعد غير المنطوقة، وهيبُعد هندسي بين الناس، يمكن وصفه بما يلتقطه الحدس من النقاط اللامتناهية التي تصطف بين شخصين أو ا ًكثرلترتسم كحيز في الفضاء، قوامه شعور الناس تجاه بعضهم البعض، وهي من الناحية النفسية عبارة عن "الدائرة" التي تنشأ بوقوف الشخصقريبًا جدًا من شخص آخر حيث انفرد بتصنيفها إدوارد تي هول في كتابه "البعد الخفي" كما يلي:

المسافة الحميمية تبدأ عند التلامس إلى مسافة 46 سم تقريبا وهي مخصصة للعشاق والأطفال وأفراد العائلة المقربين والأصدقاء وكذلك الحيوانات الأليفة، ويمكن أن يدخل في هذه المسافة أيضا الأطباء أثناء فحص المريض، والحلاق،...

المسافة الشخصية تبدأ على بعد ذراعتقريبًا، أي 46 سم من الشخص وتنتهي على بعد 122 سم. وتستخدم هذه المسافة في أحاديث الأصدقاء والدردشة مع الأصحاب وفي الحوارات الجماعية.

المسافة الاجتماعية التي يترواح بعدها بين 1.2 متر - 2.4 أمتار عن الشخص تكون للتعامل مع الغرباء والمعارف الجدد، وتبدو على نحو كثيف في الحياة اليومية في المدن الكبيرة خاصة ، حيث تتجسد بين البائع والزبون، أو بين الموظفين ومرتادي مكاتب الإدارة من عامة الناس، وهذا النوع من المسافة عادة يفرض طبيعة الحوار بين الطرفين، إذ في الغالب يُتحاور في المواضيع العامة كحالة الطقس.

المسافة العامة لا تقل عن 2.4 أمتار عن الشخص الآخر، وتتمثل في إلقاء الخطب والمحاضرات والعرض المسرحي. فالمسافة العامة مخصصة في المقام الأول للجمهور العريض[4]، كما قد تكون مسافة للشخصيات العامة والمسؤولين والمدراء.

والواقع أن تنظيم هذه المسافات هو من الأهمية بمكان، إذ كثيرا ما أدى تقليصها إلى صدام بين الأفراد، باعتبارها تعدٍ عن الخصوصية، كما قد تفهم جفاء إذا ما تم تمديدها عن حدها المعهود، ذلك أن لا أحد ينكر أن رسم المسافة وتمثيلها بين الأفراد جزء من تفكيرنا، تفصح عنه حواسنا، وكثيرا ما تخدعنا عيوننا لتكسر المسافة وتجعلها تكبر أو تضيق لتعرب عما تكتنزه النفس من مشاعر وأحاسيس تشكلت في ضوء قيم ومعايير تحكم الطرفين على السواء.

ثالثا. أدوات رسم المسافات الاجتماعية في الجيوب القروية داخل المدن

إن العالم الذي نعيش فيه مصنوع في وعينا بأبعاد هندسية، بكل ما حوى من أفراد وأشياء، وعلى أساس هذا الوعي تكون ممارساتنا اليومية، كما أن إدراك وعينا للعالم المحيط بنا يجعلنا نرسم الحيز الشخصي لنا ونحافظ عليه، وندافع عنه في مقابل أي اختراق أو تعدٍ برغم تفاعلنا المستمر، بل وحاجتنا الماسة لهذاالتفاعل، إذ نحن به نتشكل ونمو ونتطور ونتغير و...وحسب **جان بياجيه** فإن كل تفاعل بين الذوات الفردية سيغير هؤلاء، الواحد

بالنسبة للآخر، فكل علاقة اجتماعية هي بالنتيجة علاقة كلية بذاتها، منتجة خصائص جديدة ومحولة الفرد في بنيته الذهنية، من التفاعل بين فردين إلى التفاعل الكلي القائم من مجموع العلاقات بين الأفراد في المجتمع ذاته، هناك إذن استمرارية، الكلية في النهاية التي ينظر إليها على هذا الشكل تظهر وكأنها تقوم ليس من حاصل الأفراد، ولكن من نسق التفاعلات المتبادلة التي تغير هؤلاء الأفراد في بنيتهم نفسها[5]، الأمر الذي ينتج في النهاية نماذج اجتماعية مميزة، متفردة بخصائص، حيث ساق **د.عبد الغني عماد** في معرض حديثه عن التفاعل الرمزي بين الأفراد جملة من المقولات المنطقية نحسبها آليات لبناء نماذج اجتماعية متفردة، حيث قال:

تكتسب عقول الفاعلين قواعد اجتماعية تحصل عليها من المحيط الاجتماعي، حيث تتم صياغة هذه العقول حتى تنسجم مع المحيط الذي تعيش فيه .

وعند تعايش الأفراد مع محيطهم الاجتماعي كفاعلين، فإنهم يتفاعلون مع الفاعلين الآخرين، ويبدأون باكتساب خبرات اجتماعية حول عالمهم المحيط .

كما لا يفرط الفاعلون في المكتسبات الاجتماعية، فهم يحرصون على تخزينها في ذاكراتهم لتكون باكورة معارفهم الاجتماعية .

يستخدم الفاعلون هذه المكتسبات المعرفية المخزونة في ذاكراتهم عند تعاملهم اليومي مع غيرهم من الفاعلين، أي يستخدمون الخبرات الماضوية لمواجهة الفاعلين الآخرين في محيطهم، الأمر الذي يمنحهم رؤى جديدة حول علائق اجتماعية مستشرفة.

وإزاء هذا الأمر يتشكل عند الفاعل ما أسماه علماء الاجتماع بـ"**المعرفة المخزونة**"، لينتج عنها مفهوم آخر هو"**التخلل الذاتي**" الذي يأتي كنتيجة عن التقبل الذاتي بين مختلف الفاعلين، كل منهم للآخر، وهذا لا يحصل إلا عندما ينتج هؤلاء نوعا من "**النمذجة**"، التي تعني تشكيل صيغ متنوعة ومتعددة للأفعال الاجتماعية التي مرت عليهم في حياتهم الاجتماعية، وهكذا تتشكل خبرات ذاتية –اجتماعية، قد تتعزز إذا واجهت نفس ظروف

تشكلها، أو تلغى إذا واجه الفاعل ظروفا معاكسة لها تبرهن على سوء تشكيلها أو انحراف رؤيتها أو نقص تركيبتها [6].

بالجيوب القروية،لتموضع العمران وتراصفه أثر كبير جدا على المسافات بين الأفراد، إذ أن المساكن الملتحمة مع بعضها تمنح القاطنين بها دفقا من الحميمية، فكما تتعانق المساكن يتعانق السكان، كما أن لشبكة الطرق والشوارع أثرها البالغ في تحديد المسافات بين الأفراد، وفي ما يلي آثرنا الحديث عن المسافات من خلال شكلين من أشكال التفاعل بين الأفراد فقط، إذ أن كل شكل ينطوي على جملة من الآداءات التي ترسم المسافات بين الأفراد.

الاتصال الكلامي

لا يمكن الاتصال لفظيا إلا بوجود عقد من الرموز المتراصفة، التي تشكل قاعدة خلفية ينطلق منها كل توجه للآخر، وكذا إحدى الأدوات المستعملة لإيصال الأفكار عبر تبادل لغة منطوقة مفهومة من قبل شخصين أو أكثر، ولأن الجيوب القروية هي محط الاثنيات، فإن الكلام يتداول بسخاء، حيث كانت التحية في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي طاغٍ عليها عبارة "صباح الخير" أو "**واش اصبحت؟**" أو "**واش اصبحتي؟**"، لكن عبارة "**السلام عليكم**"اكتسحت ما سبقها منذ امتداد الصحوة الإسلامية منذ أوائل التسعينيات من القرن الماضي، بيد أن الملفت للانتباه هو أن كبار السن لا يبادرون بالتحية معارفهم فحسب، بل كل من ساقته خطواته باتجاههم أو بالقرب منهم، وهم في كل الأحوال مهيؤون لفتح الحوار مع أيٍ كان، بيد أن اللافت للانتباه أنه ورغم السخاء في الكلام، إلا أن الرجال لا يتجرؤون على الحديث مع النساء والعكس، إلا في حالات القرابة، والمسافة هنا قد تنتهي بالمصافحة وقد يحددها عرض الطريق الذي يلتقي فيه الأشخاص.

في الجيوب القروية الناس تتكلم بدون قيود، حتى مع الغرباء، وتفضفض دونما داع لذلك مع أيّ كان، وتميل إلى التعارف حتى وإن كان الأمر يشكل إزعاجا للطرف الآخر، فحين تقصد محلا للبقالة توقع أن يسألك البائع عن اسمك ومسكنك وإن صادف وعرف

أنك من عائلة يعرفها سيسترسل في الحديث معك دون ملل، بل وقد يفتح معك أحاديث جانبية، فالمسافة هنا مرهونة بمدى الرغبة في مواصلة الحديث، والحديث عادة يتم حول غلاء المعيشة، والتغير الاجتماعي ومشكلات الشباب.

إن العلاقة الاجتماعية بين الجيران تحظى بنصيب وافر من الأهمية، إذ ورغم التباين الاثني، إلا أن المجال غير المخطط المتراص من شأنه توطيد العلاقات بين السكان وتحويلها إلى صلات رحم ومصاهرة ، ويتم ذلك عادة من قبل النسوة اللواتي يسترقن من ضيق الشارع فرصة لتجاذب أطراف الحديث وصنع الألفة أو الفتنة، وتحسين الجوار -في أغلب الأحيان-وإثراء مختلف العمليات الاجتماعية، بينما يظهر التراص الاجتماعي في حارة الشاوية وحارة الحشاشنة خاصة حيث يسود التجانس الاثني وفي التكتلات المشوهة حيث كان المجال أصلا لعائلة واحدة ثم انقسمت وورث العقار للأحفاد كما هو الشأن في درب العثامين والسوامع وأولاد دراج في حارتي طابق الكلب والنواة القديمة .

بعض الأسر تكتفي في فصل الصيف بإسدال الكلّة بدلا عن غلق الباب، ليتناهى الكلام المتداول داخل المسكن إلى مسامع المارة دونما حرج من أصحاب البيت، مما يعرض خصوصيات الأسرة للانتهاك، هذا السلوك اعتادت عليه بعض الأسر، خاصة تلك التي تقع في الطرق الضيقة والحادة، وهو لا يعتبر انتهاكا للخصوصية في ثقافة الحي –وربما انسحب الأمر على أحياء بسكرة القديمة، وكبلوتي وسطر ملوك والعطيلة- وبعض هذه التجمعات العمرانية هي جيوب قروية احتوتها مدينة بسكرة بمرور الزمن.

كما أن حياة أخرى تتم فوق سطوح المنازل، إذ المساكن البسيطة ذات الجدران المنخفضة تمنح النسوة في غياب الرجال فرصة الحديث وتبادل الطعام واستعراض المشتريات من الألبسة وأدوات الزينة وأثاث المنزل، والتحدث مطولا حول وصفات الطبخ والزينة وكذا التدبير المنزلي، ومواضيع أخرى من قبيل الإنجاب وفك السحر و...ومعظمها مواضيع شخصية وحساسة، الأمر الذي يؤول عند الخلاف حول مختلف الأسباب إلى معايرة بعضهن البعض بمثل العورات المنتهكة من خلف جدران السطوح، فالمسافات هنا وإن بدت كبيرة فمادتها الأساسية قضايا شخصية.

وللسطوح نصيب في رسم المسافة بين الأفراد، فعندما يصعد أحد الجيران "**الذكر البالغ**"إلى سطح منزله، فإنه يستأذن الجيران، حيث ينادي "الطريق الطريق..."، ففي هذا الأمر حفاظ على حرمة الجار من أن تقع عينه على من بفناء المسكن من نساء... ولهذا السلوك قداسة لدى السكان، واختراقه أو إهماله يُعد تعدٍّ صارخ على حرمة الجيران.

من جهة أخرى فإن تركز المساجد والمقاهي داخل النسيج العمراني من شأنه تقليص المسافات بين الناس، إذ أن المساكن الضيقة تلفظ الرجال عادة خارجها باتجاه المقاهي أو على نواصي الشوارع، حيث يقضون ما تبقى من نهارهم في الدومينو أو الضامة مع احتساء كؤوس الشاي وفناجين القهوة.

ويبدو أن اختراق مجالات الصوت في الشارع العام لدى السكان أمر عادي من قبل بعضهم البعض، ففي موسم الأعراس يقيم الرجال حفلاتهم في الشارع، حيث يصدح**البرّاح** وعبر مكبر الصوت بصوته إلى غاية منتصف الليل دونما تذمر أو مساءلة من أحد، ويجسد هذا الأمر **أولاد دراج والسحاري والسوامع** ، بينما يسهر **الشاوية** على صوت البارود، وأهازيج الرحابة.... بهذا السلوك يكون الناس قد اخترقوا المجالات الشخصية، وأفسدوا وقت الراحة للسكان.... هذا السلوك الريفي انسحب على المدينة ليمارس في كل شوارعها وأحيائها،وهو إحدى مظاهر ترييف المدن، نفس التعدي على مجالات الآخرين يظهر في سلوك أصحاب المحلات الذين يعرضون بضائعهم على الرصيف، دافعين المارة إلى استخدام قارعة الطريق.

الاتصال غير الكلامي

قد يختلف الناس من مجتمع لآخر في أساليب التعبير عما تكنه النفس من مشاعر، لكن ثمة قواسم مشتركة تكاد تكون فطرية، يفهمها جميع البشر، كمشاعر السعادة والحزن والغضب والاشمئزاز والخوف والدهشة، وهذه النزعة الغريزية الفطرية هي من بين المسائل التي تصنع المسافة بين الأفراد، فدموع الحزن ودموع الفرح ودموع الاستعطاف ودموع الخوف عادة تكون مصحوبة بتقاسيم الوجه مما يرسم المسافة وفقا لتلك التقاسيم، وإن كان

التعبير بتقاسيم الوجه فطريا وغريزيا، فإن بعض أساليب التعبير بالحركات تحددها الثقافات والجماعات وبصور مختلفة[7].

بمعنى أن تقاسيم الوجه كثيرا ما تنوب عن الكلام بتقطيب الحواجب والاشمئزاز وإشاحة الوجه و... مدعاة لرسم مسافة أطول، فيما تدعو الابتسامة إلى تقليصها، وقد تدعودموع الاستعطاف إلى اختراق المسافات الشخصية وحتى الحميمية.

من جهة أخرى فإن تزيين الوجه بشكل ملفت قد يقلص المسافة بين النساء والرجال، الأمر الذي يدفع بكثير من النسوة إلى حجب الوجه بالنقاب **"العجار"**، وهو أمر منتشر بكثرة في الجيوب القروية بحي العالية الشمالية.قد يتم بإيعاز من الرجل سواء كان زوجا أو أبا أو أخا أحيانا باسم التدين، وأحيانا أخرى باسم تقاليد المجتمع ومعاييره، فيما يتخذ لبس العجار أشكالا أخرى، إذ تلبسه النسوة داخل الجيب القروي وتنزعه خارجه، أو تلبسه حين ارتياد الأسواق المفتوحة كسوق الاثنين وسوق الخميس.

وللوجه في الجيوب القروية أهمية تتجلى في المقولات الشعبية مثل **"وجه الحياء يا قمير"**، وتقال لمن يتصنع الحشمة فيما يأتي بخلافها، و**"احشم على وجهك"** وتقال لمن يريده الآخرون أن يستحي، و**"حمّر وجوهنا"** أي زدنا مفخرة بعمل محمود.

في الجيوب القروية تبدو الحياة ليومية أقرب للروتين منه للتجديد، بيد أن المتأمل يلحظ تجديدا في كل يوم وفي كل موقف، فالناس هنا وبناء على تفاعلهم مع المكان يعيدون تشكيل واقعهم رغم أن إدراكهم له مختلف ومتفاوت، بناء على طبيعة المهادات والخلفيات التي نشأوا فيها والبواعث والحوافز التي يستهدون بها والمصالح التي يسعون إلى تحقيقها، ولأن لدى الأفراد القدرة على الفعل الابتكاري الخلاق، فإنهم يعيدون تشكيل واقعهم على الدوام عبر ما يتخذونه من قرارات وما يقومون به من تصرفات، فالواقع حسب **أنتوني جيدنز**ليس ثابتا وساكنا وناجزا، بل إنه يخُلق ويتشكل ويعاد تشكيله، يظهر ذلك جليا في سلوكات الناس، فالذين شكلوا الواقع في الجيب القروي في سبعينيات القرن الماضي، ليسوا هم مشكليه في سنوات القرن الحالي، وتشهد على ذلك السمات الثقافية البائدة والسمات التي تظهر كل يوم، مثال ذلك إذا طرق زائر بيتا من عرش **"أولاد رحمة"**، فإن

المرأة ترد بالتصفيق دون الكلام، لألا يضطر الطارق الغريب إلى الاستفسار عن وجود الرجال من عدمه، وفيما تختفي ظاهرة التصفيق تظل الأسر القديمة محافظة على السلوك الاحتشامي، فالمرأة لا تفتح الباب للطارق بوجود صاحب البيت أو الذكور بشكل عام داخل المسكن، تفاديا للحديث مع رجل غريب.

إن عبور امرأة بالغة السفور الشارع في الجيوب القروية يدعو إلى لفت الانتباه أو التحرش من قبل الشباب –عادة لا يتحرش الشباب بالقرب من منازلهم أو منازل أقربائهم- وعبور امرأة ورجل في مشية مشبوهة أمر يدعو إلى تدخل السكان بالكلام والنهي عن السلوك، ووجود الشرطة يدعو السكان للالتفاف والسؤال عن سبب الحضور، حتى وإن كان الأمر لا يعني أحدا، كما أن وجود العراك يدعو السكان لاختراق كل المسافات لفضه... فالمشهد يبدي السكان وكأنهم لا شغل لهم إلا كسر المسافات.

بعبارة أخرى، لا يتجاهل الناس في الجيوب القروية من مر بمنازلهم، بل يعيرونه كل اهتمامهم، ويحدقون فيه مليا، فهم يصفون لباسه وطريقة مشيته وكل حركاته، وهم وإن لم يقتحموا حلة الآخرين بالتفاعل المباشر اقتحموها بالتحية، وإن تعذر ذلك اقتحمتها نظراتهم الرامقة، وهم بشكل عفوي أو مقصود يأتون بهذا السلوك ولا يعيبون على أنفسهم الاشتغال بخصائص الآخرين، فذلك جزء من حياتهم الروتينية، ومن تفكيرهم، فميزة "الإغفال المهذب"• التي يتخذها سكان المدن المزدحمة كآلية من آليات التكيف مع الازدحام والصخب والاتصالات اللاشخصية والعابرة تبدو مستحيلة في الجيوب القروية، حتى وإن عج المكان بالناس.

الخاتمة

المسافة وإن كانت بعدا هندسيا، فهي أيضا رمز ينطوي على كثير من المدلولات، ووظيفة الرمز كما أشار ميشيل فوكو بقوله **"إن المسافة كبيرة بين ما تظهره الرموز وما تحجبه وما تومئ إليه وما تستره، إلا أن ذلك التباعد ذاته هو ما يجعل عملية التأويل ممكنة، وتلك المسافة، وما تتطلبه من عنت وجهد وشك وتساؤل، هي التي ترفع القراءة إلى مرتبة**

تجعلها فنا من الفنون"[8]، وفي هذا المقام خلصنا إلى أن المسافة التي أبدع في رسمها **إدوارد تي هول** لا تنطبق على الجيوب القروية في المدن الجزائرية، فالسلوكات اليومية في المجتمع الجزائري تستند إلى إطار مرجعي مميز، وسلم من القيم والمعايير الشعبية التي آل إليها المجتمع عبر الزمن وأصبحت جزء لا يتجزأ منه، هذا فضلا عن الخصائص الريفية التي تنسلخ بالتدريج تواقة لحياة حضرية جديدة، ففي وجود جوار متراص العمران وشبكة طرق ضيقة، وإثنيات متمايزة ترتسم المسافات عفوية بشتى الأشكال والطرق.

الهوامش:

---

[1] جيل غاستون غرانجي .(2009) فكر الفضاء. ترجمة: علي دعيبس. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت لبنان. ص12

[2] نفس المرجع السابق. ص14.

[3] ميمونة مناصرية . التحول الديمغرافي وآثاره على التشوه العمراني –دراسة تطبيقية بحي العالية الشمالية-إشراف: أد .بلقاسم سلاطنية . قسم علم الاجتماع والديمغرافيا . جامعة منتوري قسنطينة الجزائر. السنة الجامعية 2004/2003 .

[4] https://ar.wikipedia.org/wiki/ مساحة شخصية 2017/003/12 في

[5] جي روشيه ص26 .

[6] عبد الغني عماد.(2007).منهجية البحث في علم الاجتماع . الإشكاليات ، التقنيات ، المقاربات .دار الطليعة للطباعة والنشر . بيروت .لبنان. ص117 .

[7] أنتوني جيدنز.(2005). علم الاجتماع. ترجمة: فايز الصياغ. مركز دراسات الوحدة العربية. ص ص 175 -180 بتصرف.

- مصطلح "الإغفال المهذب" جاء واردا في المرجع السابق.

[8] علي أسعد وطفة.من الرمز والعنف إلى ممارسة العنف الرمزي قراءة في الوظيفة البيداغوجية للعنف الرمزي في التربية المدرسية. مجلة شؤون اجتماعية. العدد 104 شتاء 2009 .ص56.